عبد الحميد كشك

مع المصطفين الأخيار





مع المصطفين الأخيار

عبد الحميد كشك

يقول المؤلف: يدور هذا الكتاب حول نخبة من أصحاب الرسائل السماوية، إنهم أنبياء الله الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله .

كيف صبروا على أذى الناس؟ . كيف صمدوا أمام الأحداث؟ . كيف تمرسوا بالشدائد؟ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما أستكانوا، بل كانوا صابرين صامدين .

والمسلمون فى كل عصر محتاجون إلى الإقتداء برسل الله ، الذين تلقوا الوحى غضا من الله، لاسعاد البشرية كلها . فهلا تأسى المسلمون بهم في عباداتهم ودعواتهم إلى الله ليتحقق لهم وعد الله : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز) .

عادل محمد

هذا الكتاب

يدور هذا الكتاب حول نخبة من أصحاب الرسائل السماوية، إنهم أنبياء الله الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله .

كيف صبروا على أذى الناس؟ . كيف صمدوا أمام الأحداث؟ . كيف تمرسوا بالشدائد؟ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما أستكانوا، بل كانوا صابرين صامدين .

والمسلمون فى كل عصر محتاجون إلى الإقتداء برسل الله ، الذين تلقوا الوحى غضا من الله، لاسعاد البشرية كلها . فهلا تأسى المسلمون بهم في عباداتهم ودعواتهم إلى الله ليتحقق لهم وعد الله : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز) .

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب». (إبراهم: ٤١)

«رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا».

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاما على سيد الأنبياء، سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحابته أجمعين .

أما بعد...

فهذا كتاب تدور موضوعاته حول نخبة من أصحاب الرسائل السماوية، إنهم أنبياء الله الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله . كيف صبروا على أذى الناس، وكيف صمدوا أمام الأحداث، وكيف تمرسوا بالشدائد فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، بل كانوا صابرين صامدين سألوا الله وحده، واستعانوا به وحده، وتوكلوا عليه وحده، فكان النصر لهم، وكان التوفيق حليفهم، وكانت النجاة مصيرهم، ففازوا ومن اتبعهم بالسعادة فى الدنيا والآخرة.

وهذا تحقيق وعد الله تعالى في قوله: (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز)(المجادلة 21)

وفي قوله: (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) الحج: ٤٠ .

فاللهم وفقنا لاتباعهم، وسلوك طريقهم، فأنت ولينا.. فنعم المولى ونعم النصير .

وصل الله على البشير النذير سيدنا محمد وعل آله وصحابته الغر الميامين .

مع المصطفـين الأخيار

مع الصفوة المختارة الذين اجتباهم الله لتبليغ رسالته وهداهم إلى طريق الحق والرشاد.

مع الذين قال الله فيهم (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما)[1].

مع الذين أحبوا معالى الأمور، وكرهوا سفسافها.

عل قدر أهل العزم تأتي العرائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

ويعظم في عين الصغير صغيرها وتصغر في عين العظيم العظائم

مع الذين تسلحوا بالوحى والحق واليقين والصبر والعدل .. تسلحوا بالوحى ، لما أوحى الله تعالى إلى نوح بأنه (لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون)[2] .

وكان هذا بعد ألف سنة إلا خمسين عاما، ولما لم يجد نوح فى هذه الأرض ما ينبت نباتا صالحا، بل صار النبات نكدا لأنها أرض خبيثة قال نوح: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا)[3].

وعلل دعاءه هذا بقوله إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا)[4]

ويقول ابن عباس رضى الله عنه : دعا نوح ربه دعوتين استجاب الله احداهما ، ونرجوه أن يستجيب الأخرى وأن يجعلنا فيمن شملتهم:

كانت إحداهما (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وقد استجابها الله .

---

(١) النساء: ١٦٥

(٢) هود: ٣٦.

(٣) نوع : ٢٦

(4) نوح : ٢٧ .

والأخرى، قال فيها نوح (رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات)[٥] .

ونسأل الله أن يستجيبها وأن يجعلنا ممن شملتهم.

نعم.. لقد تسلحوا بالوحى، فبينما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى المدينة بعد غزوة أحد وقد امتحن المسلمون فيها، وأهم أصحاب الرسول ما أصابه من محن وشدائد، وقد خرج إلى أحد بناء على ما أشار به الشباب من أصحابه ، فإذا هو ينزل عليه الوحى ومازالت الجراح تنزف. (فبما رحمة من الله لنت هم لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم

وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)[6].
فانظر معى متى نزلت هذه الآية؟ وأين؟ لتعلم أنه لا استبداد بالرأى مهما أدت الشورى، وأن الشورى ملزمة للإمام مهما كانت العواقب .
تنزل الاية بعد غزوة لقى المسلمون فيها من الشدائد ما تنوء به الجبال ، فأسد الله حمزة يخر على الأرض شهيدا، لتروى الأرض بدمائه الزاكية، ويبقر بطنه، وتخرج كبده، وتلوكها هند ثم تلفظها، ويجدع أنفه، ويخف الرسول إلى مكان الحادث ليرى عمه وقد وقع به ما وقع من المثلة فيقول: والله يا عمى ما وقفت موقفا مثل موقفى هذا عليك، وما فجعت فى أحد كما فجعت اليوم فيك ، ولئن أمكننى الله منهم لأقتلن سبعين أو مائة فماذا كان الرد من العلي الأعلى.
لقد هبط سفير الأنبياء، وكبير أمناء وحى السماء جبريل ببرقية عزاء قرآنية طاهرة من لدن حكيم خبير .

---

(5) نوح 27
(6) إلى عمران: ١٥٩

من مالك الملك، وملك الملوك. يقول الله فيها: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم هو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق ما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)[7]
فماذا قال ناشر الهدى، وواسع الندى، وقد نزلت آيات القرآن على قلبه ، كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى قال : (نحتسب ونصبر إنما الصبر عند الصدمة الأولى).
ان أجل ما أوتيت هذه الأمة الصبر واليقين . إن الأنبياء المكرمين تسلحوا بالوحى، ووقفوا عند حدوده، فما خالفوا لله أمرا.
كان أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود إذا مروا به قالوا له: السام عليك يا محمد.. والسام هو الهلاك والموت.
فكانت عائشة رضى الله عنها الصديقة بنت الصديق ترد قائلة: وعليكم السام واللعنة إخوان القردة والخنازير .
فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول لها: (يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش فى الكلام)، فكانت تقول له: يارسول الله .. ألا ترى ماذا يقولون لك.
فيقول لها: ولكن الله أمرنى بغير ذلك قال (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)[8]

---

(٧) النحل: ١٢٦ - ١٢٨
(8) فصلت: ٣٤، ٣٥ .

أوما رأيت يا عائشة ماذا قلت لهم لقد قلت: وعليكم. والله سبحانه وتعالى وصف هذا الموقف فى نص قرآنى رائع، قال سبحانه :
(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول)[9] ، أى لو كان هذا نبيا لعذبنا الله بما نقول له.
فجاء الجواب من الله تعالى حاسما جازما قاطعا رائعا: (حسبهم جهنم يصلوها فبئس المصير)[10]
إن أنبياء الله أحبوا معالى الأمور فكانوا قمما شوامخ، ورؤوسا عالية، ونفوسا كبارا، فبينما رب العزة يحيي نبيه ومصطفاه فيقول: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته إذا بغاث البشر، وشذاذ الافاق والثعالب الماكرة تقول له: السام عليك يامحمد.
فهل ينزل أصحاب الهمم العوالى من أبراج المثل الاخلاقية وصروح القمم العليا إلى هذا الدرك من السفه لن يكون ذلك.
يخاطبنى السفيه بكل قبح وآبى أن أكون له مجيبا   يزيد سفاهة فأزيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا
إن أصحاب النفوس العالية يتابعون الترقي ، ولا يقاومون التدلي ، لأنهم دائما يسمون من علياء إلى علياء، وتأمل معى ما رد به السلام رسول السلام لما حياه السلام بالسلام لم ينس إخوانه الانبياء فقال : . (السلام علينا) بل لقد شمل فى رده الصالحين من عباد الله فقال : (وعلى عباد الله الصالحين) .
وهذا السلام ورده خير وبركة، فهو يتردد فى كل صلاة، لتظل البركات والرحمات، ويظل السلام والأمان، والسكينة تظلل الصالحين بظلها الوارف الظليل.

---

(9) المجادلة 8   (10) المجادلة 8

المبشرون المنذرون

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا)[11]

إن أنبياء الله تعالى صمدوا أمام الأحداث، وتمرسوا بالشدائد، ووقفوا مواقف المجد والشرف أمام قوى الباطل وأنيابه الشرسة. لقد علموا أن الباطل لن يهادن الحق ولو أمره الحق بالتزام الصبر حتى يحكم الله .

لقد قالت الرسل لأهل الباطل: (إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون)[12]

فماذا قال أهل الباطل لدعاة الحق الذين رفعوا راية التوحيد خفاقة في باذخ الذرى، تناطح الجوزاء، وتزاحم الشمس في الجلاء. ماذا قالوا؟.

استمع معى فى خشوع وإخبات إلى ما قرره الكتاب العزيز فى شأن هؤلاء.

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا)[13] ..

عجب وأى عجب! .

---

(١١) الكهف: ٥٦ (١٢) إبراهم: 11، 13

(١٣) إبراهم: ١٣.

أهل الحق يقولون (ولنصبرن على ما آذيتمونا) .. هذا منطق الحق المبين ولسانه القويم، فيقول أهل الباطل:

(لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) فتأمل معى البون الشاسع، والفرق البعيد بين الموقفين . تسليم مطلق لأمر الله من أهل الحق وتوكل عليه وتفويض إليه، يقابل هذا صلف وطيش وسفاهة وحماقة وعنفوان من أهل الباطل.

(لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) . الموقفان متناقضان لا يجتمعان، وضدان متباعدان لا يلتقيان .

(وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور. إن أنت إلا نذير. إنا أرسلناك بالحق

بشيرا ونذيرا)[١٤] .
إن الموقف بهذه الصورة فى مسيس الحاجة إلى حزم وحسم، ولا يملك كلمة الفصل فيه إلا مالك الملك وملك الملوك، وكان ذلك كذلك جاءت كلمة الفصل فى قوله جل شأنه :
(فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد)[15] .
هذا موقف مهيب ومقام رهيب بين قوة الحق وطيش الباطل. فاذا ما انتقلنا إلى مشهد اخر من تلك المشاهد التى صمد فيها الانبياء، رأينا نبى الله شعيبا - عليه السلام - وقد قدم منهاج رسالته لقومه الذين تمرغوا فى أوحال المادة المظلمة فنقصوا المكيال والميزان وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجا.

---

(١٤) فاطر: ١٩ - ٢٤
(١٥) إبراهيم: ١٣،١٤-

فماذا قالت له تلك العقول التى عشش فيها الشيطان، فباض فيها العناد وأفرخ فيها الكبر والطغيان .
اننى أعرض هذا المنهج الربانى كما ورد في سورة الأعراف، لتبين الحقيقة. فضل بيان، وتنجلي الأمور كأنها الشمس فى ضحاها.
قال جل شأنه : (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86)[16].
هذا درس لا ينساه إلا كل غافل ولا يجحده إلا كل أفاك أثيم . لقد ذكرهم بنعم الله عليهم عندما قال لهم:
(وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ).
وعندما قال لهم فى موضع اخر من القرآن الكريم (إنى أراكم بخير)[17] . وعندما قال لهم: (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين)[18]
وعندما قال لهم مؤكدا أنه قدوة حسنة وناصح أمين : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)[19]
وعندما حذرهم وأنذرهم من عواقب وخيمة فقال لهم: (انظروا كيف كان عاقبة المفسدين)
وعندما قال لهم: (إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط)[20].

---

(١٦) الاعراف: ٨٥، ٨٦   (١٧) هود: ٨٤   (١٨) هود: ٨٦.

(١٩) هود: ٨٨ (20) هود: ٨٤.

وقال لهم: (ويا قوم لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد)[21]

وهو يقول لهم: (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود)[22] فماذا كان جزاؤه؟ وبأى شيئ أجابوه ؟ .

(قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) ثم تهكموا وسخروا قائلين : (إنك لأنت الحليم الرشيد)[23].

نم قالوا: (يا شعيب ما نفقة كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز)[24]

هذا منطقهم يقابل المعروف بالاساءة، ويقابل الحسنى بالقبح، ويقابل الاصلاح بالافساد، والارشاد بالعناد . فماذا قال نبى الله شعيب .

لقد أمرهم بالصبر حتى يحكم الله، فقال (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين)[٢٥].

فانظر إلى أى مدى كان حلم الأنبياء وصبرهم على الأذى وتحملهم لتلك السخافات . ثم انظر إلى أى مدى كان الباطل يتمادى ويعتدى ويرمى البراهين بشرر كالقصر، ويقابل الحجج بأنيابه ومخالبه. ثم انظر كيف لجوا فى عتو ونفور وظلوا في طغيانهم يعمهون . ماذا قالوا لشعيب بعد ذلك؟

---

(21) هود: ٨٩   (٢٢) هود: ٩٠   (23) هود: ٨٧.

(٢٤) هود: ٩١   (25) الأعراف: ٨٧.

منطق المستكبرين

أن الله تعالى يحب ثلاثة و حبه لثلاثة أشد، ويبغض ثلاثة وبغضه لثلاثة أشد. يحب الطائعين ، وحبه للشاب الطائع أشد. ويحب المتواضعين ، وحبه للغنى المتواضع أشد. ويحب الأسخياء، وحبه للفقير السخى أشد. ويبغض العصاة، وبغضه للشيخ العاصى أشد. ويبغض المتكبرين، وبغضه للفقير المتكبر أشد. ويبغض البخلاء، وبغضه للغنى البخيل أشد.

لقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أول المتواضعين، كان متواضعا فى غير ذل، مترفعا في غير كبر، كان ينساب في أخلاق أرق من النسيم، وأنضر من صفحة الروض الوسيم.

كان يبغض الكبر ويحذر منه قال : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)... قال رجل: يارسول الله، الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة فهل هذا

من الكبر ؟ .

قال الصادق المعصوم: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر غمط الناس وبطر الحق) .

فما أعظمك يا رسول الله وأنت تشخص الداء.. وما أكرمك وأنت تصف الدواء.

لما دعا نبى الله شعيب قومه وأمرهم ونهاهم ورغبهم وحذرهم وقال لهم آمرا: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان)[26] فما سمعوا له قولا، فما لان عصيهم، ولا دنا قصيهم، وما خشعت لله أصواتهم، وما عنت للحى القيوم وجوههم. لقد خابوا لأنهم حملوا ظلما، والظلم مرتعه وخيم وهو ظلمات يوم القيامة.

وبعدما أمرهم بالمعروف والعدل والإحسان نهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغى، قال لهم ناهيا: (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بغد إصلاحها)[27] . ورغبهم فقال (ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين)[28] ، ثم نهاهم قائلا: (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتيغونها عوجا)[29] .

ثم ذكرهم بنعم الله عليهم.. فقال : (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم)[30] ثم حذرهم بعد ذلك قائلا: (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين)[31] .

ان الله تعالى يذكرنا كثيرا بأيامه فى الأمم السوالف فيقول فيما أصاب قوم لوط : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود)[32]

لم يقل وقذفناها بحجارة إنما قال (وأمطرنا)، وذلك لأنها كانت من الكثرة بحيث أشبهت الوابل الهاطل من السماء (ما تزر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم)[33]

---

(٢٦) الأعراف: ٨٥   (٢٧) الأعراف : 85
الاعراف: ٨٥   (٢٩) الأعراف: ٨٦
(٣٠) الأعراف : 86   (٣١) الأعراف: ٨٦.
(٣٣) الذاريات.: 82   ٣٣/ هود: 42

ثم يقول سبحانه محذرا ومنذرا: (مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد)[34].
وها هو ذا شعيب خطيب الأنبياء يقول لقومه: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)[35].
ولكنه لم يجد على نارهم هدى، ولم يجد لصوته صدى. فماذا كان جوابهم ؟ .
كان مخزيا وكان عنادهم طاغيا، لقد قال لهم شعيب وهو الناصح الأمين : (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلتم به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)[35]
ولكن: لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى
ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رمادى
(أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون)[37]!
لقد صمت الضعفاء، ونطق الأقوياء المستكبرون فكان الجواب كما قال جل شأنه حكاية عنهم: (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا)[38] فهل علمت منطق الباطل؟.

---

(34) هود: 83   (35) هود: 89 (36) الأعراف: 87
(37) الجاثية: 23 (38) الأعراف: 88

إنه الكبر الكاذب، إنه غمط الناس وبطر الحق لقد ضربوا بالحق عرض الحائط وتنكبوا الجادة، وحادوا عن الصراط السوى، وقلبوا له ظهر المجن، ولبسوا ثوب النمر واستعملوا لغة الوعيد والتهديد. الإخراج من القرية، ولن يتنازلوا عن هذا إلا أن يرتد شعيب والذين امنوا معه عن الإيمان . فماذا كان الجواب ؟.
أما الإخراج من القرية فقد يكون أمرا هينا، أما الذى دونه المستحيل فهو العودة والارتداد عن الايمان.
نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بابرتين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين.. أهون من أن يرتد المؤمن على عقبيه فيغير فطرة الله وتوحيده.
(قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .)[39]

إن دون ما طلبوه المستحيل كله.. لذا كان جواب شعيب (أولو كنا كارهين)[40]، أى أأنتم فاعلون ذلك بنا ولو كنا كارهين . (لقد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها)[41]

(٩ الأنعام: ٧١ ٧٣ (٤٠) الأعراف: ٨٨ (٤١) الأعراف: ٨٩.

إن: الله تعالى رتب عدم الفلاح على العودة في ملة الكفر فقال في شأن أهل الكهف، وقومهم الذين اتخذوا من دونه الهة قال : (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا) [42].

أى إن عدتم ودخلتم فى ملتهم فلن تفلحوا إذن أبدا، ولم يرتب عدم الفلاح على الرجم فإن المؤمن إذا أوذى في سبيل الله، وقتل فهو شهيد.

قال الله تعالى: (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الألهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب)[43] .

---

(٤٢) الكهف: ٢٠.

(٤٣) إلى عمران: 195.

كلمة الفصل

وهل يملك أحد كلمة الفصل الا الله الذى له غيب السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، فالوجود ملكه والقضاء حكمته، وكل الكائنات طوع إرادته، إذا قضى فلا راد لقضائه، وإذا حكم فلا معقب لحكمه، (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين)[44]
كل شيء قائم به، وكل شيء خاشع له، (وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم)[45]
خشعت الأصوات لعظيم جبروته، وعنت الوجوه لجلاله وبهائه وكماله ، (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)[46]
سبحانه عز من قائل (إنا كل شيء خلقناه بقدر. وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر)[47]
عز كل ذليل، وغنى كل فقير، وقوة كل ضعيف، ومفزع كل ملهوف . يا ابن ادم.. إذا غرتك قوتك فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك . وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوما.
لقد دعا نبى الله شعيب قومه إلى ما فيه النجاة ولكنه لم يجد إلا قوما غلاظ الأكباد، جفاة الطباع، قساة القلوب، لو وزعت قسوة قلب الواحد منهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى واحد من المخلوقات .

---

(44) الأنعام: 57 (45) الأنعام: 13
(46) الأنعام: 59 (47): القمر: 49، 50

ماذا قالوا له بعدما عرض عليهم أصول العقائد وشعائر العبادات، ومناهج السلوك، ومبادىء الأحكام، وقواعد النظام؟ .
أمرهم بتوحيد الله فى العبودية والربوبية.. فالتوحيد الصحيح إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفاتا وأفعالا . كما أمرهم بإيفاء الكيل والميزان وتصحيح السلوك وإعطاء الطريق حقها.. وحقها غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام والأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر، (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن
به وتبغونها عوجا).
إن الإيمان الصحيح تصديق بالجنان، وعمل بالأركان ونطق باللسان . فالايمان والعمل متلازمان، تلازم الضوء بالشمس والماء بالرى، والهواء بعنصره الفعال ، ويوم ينفصل الإيمان عن العمل فقد أضحى لا فائدة منه، ولا غناء فيه .

يقول حجة الإسلام الغزالى رحمه الله تعالى : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر، ومرافقوه فى السفر، ومعاملوه فى الأسواق ، فلا تشكوا فى دينه .
فالإيمان كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وليس ذلك فحسب بل تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.
وتأمل معى هنا التعبير القرآنى الرائع فى قوله جل شأنه (تؤتي أكلها)[48] ولم يقل يثمر أكلها.. لأن الإيمان يؤتى ويعطى، وهو دائما معطاء، لذلك شبه النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن بشجرة لا يسقط ورقها وهى النخلة، فكلها فوائد من خوصها، إلى جريدها، إلى ثمارها، إلى عرجونها، إلى جذعها، إلى جمارها، وكذلك المؤمن كالغيث أينا وقع نفع.

---

(٤٨) إبراهمم: ٢٥.

سأل السائل المعصوم صلى الله عليه وسلم أصحابه ذات يوم فقال لهم: أمؤمنون أنتم؟ .
قالوا: نعم يا رسول الله . قال: فما حقيقة إيمانكم؟ . قال فاروق هذه الأمة رضى الله عنه : يارسول الله نصبر على البلاء، ونشكر فى الرخاء، ونرضى بالقضاء. فقال الصادق الأمين: مؤمنون ورب الكعبة.
كان من الواجب على أهل مدين وقد أمرهم شعيب ونهاهم أن يذعنوا ويتبعوا سبيل الله .. فلقد طمأنهم قائلا: (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)[49] لكن جاء الرد منهم أليما ومؤسفا، إنهم لا يحبون الناصحين .
جاء تهديدا ووعيدا كأنه الرعود والعواصف القواصف، والرياح المحملة بالرمال ، وأصبح الجو ملبدا بالغيوم ينذر بالخطر، فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، وإن الله لا يعجل لعجلة أحدكم، إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد)[50] . (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا)[51] .

---

(٤٩) هود: ٨٨ (50)هود: 102
(٥١) الأعراف: ٨٨.

هذا منطق أهل الطغيان الذين ختم الله على سمعهم فأصبحت قلوبهم في أكنة، وعلى أبصارهم غشاوة، والذين قال الله فيهم: (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)[52]

وقال فيهم: (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)[53]
وقال فيهم: (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) (54)
إنهم موجودون على وجه هذه الأرض من يوم هبط ادم من الجنة إلى أن ينفخ إسرافيل فى الصور ، إنهم الذين رأوا بأعينهم انشقاق القمر فقالوا بكل تبجح: إن محمدا سحر أعيننا فرأينا القمر هكذا. إنهم الذين قالوا للصادق المعصوم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه)[55]
فجاء الرد مشرقا كضوء الفجر، عاطرا كعبير الزهر، سلسبيلا كماء النهر (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا)[56]

---

(٥٢) يونس: ٩٦، ٩٧ (٥٣) الحجر: ١٤، ١٥.
(٤ ٥) الانعام: ٧ (٥٥) الاسراء: 90 - 93
(٥٦) الإسراء: ٩٣.

إن أهل الباطل عندما يفاجأون بالحق تراهم يتسللون لواذا، تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت، لقد ارتدوا على أدبارهم فأصمهم الله وأعمى أبصارهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[57] .
فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه وللحديث بقية ان شاء الله

---

(57) محمد: ٢٤.

الجزاء العادل

البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان

كلمات من نور. نعم البر لا يبلى.. (ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[58] .

نعم البر لا يبلى.. (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم)[59]

نعم البر لا يبلى.. فصاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكأ. فأصنع المعروف فى أهله، وفى غير أهله، فلو صادف أهله فهو أهله، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله.

ازرع جميلا ولو في غير موضعه فلن يضيع جميل أينما زُرع

إن الجميل وإن طال الزمان به فليس يحصده إلا الذى زرع

الذنب لا ينسى (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[60] .

إن يد الله تعمل فى الخفاء، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها.

---

(٥٨) النحل: ٩٦ (59) المزمل: ٢٠ (٦٠) العنكبوت: ٤٠ .

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[61]

وكان الفاروق رضى الله عنه يقول : «أنا لا أخشى على الجيش من عدوه، إنما أخشى عليه من ذنوبه، لأننا إنما ننتصر بطاعتنا لله ومعصية العدو لربه، فإذا نحن عصينا الله فقد تساوينا مع العدو فى المعصية، وزاد علينا فى العَدد والعُدد فانتصر علينا» .. ذلك لأن النصر للأتقى، فإن لم يكن هناك أتقى، كان النصر للأقوى، وهل يهلك الأمم إلا الذنوب؟.

قف خاشعا أمام قول رب العزة جل جلاله: (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم

فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين)[62]

واقرأ قوله عز وجل: (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)[63].

إن الله جل جلاله صبور حليم، ولكن إذا تمادى العباد فى تكذيبهم بآياته، وغفلتهم عنها فإن الله لا يغفل

ولا ينام . والتكذيب والغفلة يدمران الأمم مهما بلغت من قوة وعزة وأنفة.
(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون)[64] .
الديان لا يموت..

(٦١) الحشر: ١٨، ١٩ (62) الأنعام: ٦ (٦3) هود: ١١٧ .
(٦٤) فصلت: ١٥ ١٦.

سبحانه هو صاحب العزة القائمة، والمملكة الدائمة، لا ينقصه نائل، ولا يشغله سائل، واحد بلا عدد، قائم بلا عمد، دائم بلا أمد.
(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا)[65]
سبحانه.. لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، ولاتحويه الأقطار، ولا يؤثر فيه الليل ولا النهار، وهو الواحد القهار . سبحانه.. علا فقهر، وملك فقدر، وبطن فخبر.
تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال
« من أصبح وهمه الدنيا فرق الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له». ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه شمله، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن أصبح وهمه واحد، هو تقوى الله كفاه الله هم الدنيا والآخرة . ومن أرضى الله باسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .
نعم.. الديان لا يموت، فاعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل لرسوله صلى الله عليه وسلم بقدر حبك له، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها، واعمل للاخرة بقدر بقائك فيها، واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها، وإعمل للنار بقدر صبرك عليها.

(٦٥)الفرقان : ٥٨، ٥٩.

فمن أراد مونسا فالله يكفيه.. ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه.. ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه.. ومن أراد واعظا فالموت يكفيه.. ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه..
فاللهم اغننا بالفقر إليك، ولا تفقرنا بالاستغناء عنك .
«إن شر الناس من أكل وحده، ومنع رفده، وضرب عبده، وإن شرا منه من لا يقيل عثرة، ولا يقبل

معذرة، ولا يغفر ذنبا. وإن شرا منه من يبغض الناس ويبغضونه، إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره».

اعمل ما شئت كما تدين تدان..

نعم.. ان فى السماء محكمة كتب على بابها (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[66]

وسبحان من يقول: (فلنسألن الذين أرسل إلهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين والوزن يومئذ الحق)[67]

يا نائم الليل. مسرورا بأوله، إن الحوادث قد يأتينا أسحارا، فلا أمان للدهر ولو صفا، ولا للمال ولو كثر، ولا للسلطان ولو قرب منك.

(كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون)[68] .

(٦ح) الأنبياء: ٤٧

(٦٧) الأعراف: ٦ - ٨.

(٦٨) القصص: ٨٨.

ذلكم حكم الله

سبحان ربى .. هو أعدل العادلين ، وأسرع الحاسبين ، وأحكم الحاكمين ، يقول فى كتابه الكريم (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام)[69]

سبحانه يمهل ولا يهمل (يقص الحق وهو خير الفاصلين)[70].

لما قال أهل مدين لنبيهم شعيب (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا)[71] كان الجواب (قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا)[72].

ثم طلب شعيب فى تضرع وخشوع أن يحكم الله فى القضية فقال : (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين)[73] والمقصود بالفتح هنا هو الحكم والفصل كما جاء حكاية عن نوح عليه السلام: (قال ربى إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين)[٧٤] .

و جاء في قوله عز وجل: (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون)[75] .

---

(٦٩) ابراهم: ٤٧ (٧٠) الأنعام: 57

(٧١) الأعراف : ٨٨.

(72) الأعراف: 89،٨٨ (٧٣) لأعراف: 89

(٧٤) الشعراء: ١١٧، ١١٨ . (٧٥) السجدة: ٢٨ ، ٢٩.

و جاء فى قوله جل شأنه : (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم)[76] وهل يقوى أحد على أن يقول كلمة الفصل ويحكم بالحق إلا الواحد القهار .

(قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون)[77] من كان الله معه فمن عليه.. ومن وجد الله فماذا فقد..

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك في الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعز به وكن عفيفا وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون

واستغن بالله عن دنيا الملوك   كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
فهل استكان القوم لربهم، وتضرعوا إليه عندما سمعوا نبيهم يسأل الله الحكم فى القضية.. لا لم يستكينوا ولم يتضرعوا، وما زادهم ذلك الا طغيانا كبيرا ..وما عاد عليهم
إلا عتوا ونفورا . إن قلوبهم فى أكنة مما يدعوهم إليه، وإن فى اذانهم وقرا، وإن من بينهم وبينه حجابا وإنهم يقولون له (فاعمل إننا عاملون)[78]
تلك قلوب قست فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وتلك نفوس طغت فأظلمت، كأنما أغشيت قطعا من الليل مظلما.

---

(٧٦) سبا: ٢٦ (77) الأنبياء: 112
(٧٨) فصلت: ٥.

وهذه أفئدة عتت عن أمر ربها ورسله، فاستحقت أن ينفذ فيها قوله جل شأنه : (فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فداقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا)[79] ولم يكن هذا الدرس لينسي، ولم يأت عفو الخاطر، بل (لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية)[80] .
قال تعالى : (فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا)[81] بعد طلب الفتح من الله قال الملأ الذين كفروا من قومه: (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون)[82].
لقد كفروا ولم يكتفوا بالكفر، إنما حرضوا عليه وصدوا عن سبيل الله . (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا)[83]
فتأمل منطقهم، ثم قف خاشعا أمام حكم الله لقد قال الملأ الذين كفروا من قومه : (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) وجاء الرد من رافع السماء بلا عمد، يشع جلالا ويفيض عدلا، وروعة وحسما، وبذوخا ورسوخا وشموخا. قال عز من قائل: (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين)[84]

---

(٧٩) الطلاق: ٨ - 10 (٨٠) الحاقة: ١٢
(٨ ١) الطلاق: ١٠   (٨٢) الأعراف: 90
(٨٣) النساء: ١٦٧- 169   (84) الأعراف: ٩١.

لعم.. إنه لأمر جلل، حكموا على المؤمنين بالخسران فحكم عليهم الواحد القهار بأنهم هم الخاسرون، فأى الحكمين كان صادقا، إنه حكم الله (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم)[85] فتبارك الذى إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز، لاراد لكلماته ولا معقب لحكمه.

وقد جاء هذا القول الفصل بعد أن أخذتهم الرجفة، فأصبحوا فى دارهم جاثمين.. والرجفة عذاب جاءهم من تحت أرجلهم، كا جاءت الصيحة من فوق رؤوسهم.
قال تعالى فى سورة هود: (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود)[86]
فهذه صيحة أتتهم من السماء، وتلك رجفة أحاطت بهم من الأرض. وفى سورة الشعراء يقول عز من قائل: (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم)[87]
وما الظلة؟ . لقد قالوا له: (إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين)[88].

---

(85) الأنعام: ١١٥
(٨٦) هود: ٩٥،٩٤ (٨٧) الشعراء: ١٨٩.
(٨٨) الشعراء: ١٨٥ - ١٨٧.

اقرأ ما ذكروه مرة أخرى من تهم باطلة وكيف رموه بأنه من المسحرين، وطعنوا فى صدقه فرموه بالكذب ، ثمم انظر كيف أجابهم فى أدب رفيع، وخلق بالغ من السمو مدارج الأنوار، وشتان بين الثرى والثريا وهيهات بين التراب والسحاب (قال ربى أعلم بما تعملون)[89]
لقد طلبوا منه أن يسقط عليهم قطعا من السماء، فكانت القطع سحابا تجمع في يوم اشتد حره، وضربت شمسه الأرض بسياط حامية، وقد سال منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه ، فتجمعوا تحت هذه السحب لعلهم يجدون فيها ظلا ظليلا وارفا يتفيئونه، فإذا السحابة ترميهم بحمم حامية، وشرر مدمر إنه كان عذاب يوم عظم.
ولم يكن هذا تسلية للشعوب اللاهية الغافلة، بل إنه درس يجب أن يكون له وضعه وأثره ونتائجه .
قال تعال بعد ذلك: (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم)[90] (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخرة إلا لأجل معدود)[91] فبأى شيء فاعتبروا إذا كان من الله، فالعاقل من يأخذ من الاحداث عبرة.

---

(٨٩) الشعراء: 188 (90) الشعراء: 190-191
(91) هود:102-104

وقفة اعتبار وتأمل

وقف نبى الله شعيب عليه السلام ينادى على أهل مدين، وقد أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها، وكأنهم لم يقيموا على وجه الأرض. وقف النبى الكريم بين الأطلال، وقد سحب الدهر على أهلها ذيول الفناء والنسيان، وأضحت تنعق فوقها البوم والغربان، (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة)[92] .
وقف النبى الكريم يقول : (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين)[93]
نعم الحرام لا يدوم.. وإذا دام لا ينفع . والظلم لا يدوم.. وإذا دام دمر. (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم)[94] والعقلاء هم الذين يأخذون من أحداث الليالى والأيام عبرة.

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لادار للمرء بعد الموت يسكنها   إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه   وإن بناها بشر خاب بانيها

---

٩٢) هود: ١٠٢، ١٠٣ (٩٣) الأعراف: ٩٣ (٩٤) الحجر: ٧٨ ، ٧٩ .

ولقد وقف نبى الله صالح عليه السلام على ديار ثمود وقد صارت يبابا، بعد أن كانت فى عليائها سحابا، وتحولت حرائق بعد أن كانت حدائق . وقف صالح على أطلالها ينادى أهلها، وقد أصبحوا بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم فى طيب روائحها تحت الثرى، أجسادا هامدة ورفاتا سحيقا وصعيدا جرزا.
وقف يقول لهم: (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين)[95]
قمة المأساة، بل علة العلل، بل مكمن الداء أن يكره الناس من ينصحه، بل أن يقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس.. والله جل جلاله ينادى فى عليائه وكبريائه فى الحديث القدسى: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب) . إن عدم قبول النصيحة نذير شؤم بالقوم لأن الناس بخير ما تناصحوا. والمارقون المستكبرون لا يقبلون من أهل الخير نصحا، ولا يستجيبون لهم قولا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فكان جزاء المعاندين رجفة من تحت أرجلهم، وصيحة من فوق رؤوسهم، فصاروا هباء، وصاروا سدى وأصبحوا أثرا بعد عين .

كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت   أمست خرابا وأفنى الموت أهليها
أين الملوك التى كانت مسلطنة   حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

(4ه) الأعراف: ٧٩ .

وسبحان من ينادى بعد النفخة الأولى ، عندما يصعق من فى السماوات ومن في الأرض الا من شاء الله . سبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة. سبحانه وهو ينادى على الدنيا وقد أصبحت قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . سبحانه وهو يقول:

يا دنيا أين جبالك .. أين بحارك . أين أنهارك .. أين أشجارك . أين الملوك .. وأبناء الملوك . أين الجبابرة .. أين الذين عاشوا في خيرى وعبدوا غيرى.

(لمن الملك اليوم)[96] . فلا مجيب.. الكل تحت أطباق الثرى، فقد كورت الشمس، وانكدرت النجوم ، وسيرت الجبال فكانت سرابا، وسجرت البحار ، ومارت السماء مورا.

ولا مجيب .. فيقول تعالى : (لله الواحد القهار) . إن الذين عرفوا الدنيا اتخذوها مزرعة للاخرة .

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى سكنا

جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

يرحم الله الإمام عليا كرم الله تعالى وجهه : جاءه رجل ليكتب له عقد شراء دار ، فنظر الإمام إلى وجهه ، فرأى بعين بصيرته أن الغرور قد تسرب إلى نفسه ، وأن حب الدنيا قد ملك عليه أقطار قلبه ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة .

(٩٦) غافر: ١٦ .

فأراد الإمام أن يلقنه درسا يرده به إلى صوابه، حتى يقف. على معالم الطريق، ويعلم أن دنيا أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء، لا تستحق أن تنسى الانسان ربه .

«كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور». كتب الإمام عقد الشراء بصيغة تشيب من هولها الولدان، وتقشعر من جلالها الأبدان .

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد... فقد اشترى ميت من ميت دارا، فى بلد المذنبين، وسكة الغافلين ، لها أربعة حدود الحد الأول: ينتهى إلى الموت. والحد الثانى: ينتهي إلى القبر. والحد الثالث : ينتهي إلى الحساب. والحد الرابع: ينتهي إما إلى الجنة وإما إلى النار . نعم .. إن ميت الغد يشيع ميت اليوم.

لاتركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفنينا ويفنيها

واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها

قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

إن فى القرآن الكريم دروسا بالغات، وعبرا عاليات، على الأمة أن تقف عندها موقف العاقل المتبصر بمواقع الاحداث ، والقرآن عندما يذكر القصة يعقب عليها بما فيها من مغزى ومعنى ومرمى، بعد أن يقيم صروحها بأركان المبنى . وها هى ذى قصة البشرية الأولى بعد أن هبط ادم وحواء إلى الأرض كان الدرس غاليا وعظيما، استمع إلى قول البارى عظمت حكمته: (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقي . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشرة يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آيائنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)[97]

هذه حقيقة لا تختلف ولا تتخلف، من اتبع الهدى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ومن أعرض عن ذكر ربه كانت له المعيشة الضنك والحيرة والعمى فى الآخرة.

فاللهم اهدنا صراطك المستقيم

---

(٩٧) طه: ١٢٣

الرسل والناس

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز)[98]

رسل الله هم الصفوة المختارة من قبل الله تعالى ، ليقودوا سفينة العالم الحائرة في خضم المحيط ، ومعترك الأمواج إلى شاطىء النجاة ومرفأ الأمان . ولما كان محيط ما وراء الطبيعة أعنف من أن يمخر عبابه سباح ماهر ، فإنه لم يكن هناك طريق مأمون إلا طريق الوحى، فهو الذى أرشدنا إلى ما بعد الموت.. من بعث وحشر ونشر وحساب وكتب وميزان وصراط وجنة ونار. فالعقل البشرى عاجز عن إدراك ما بعد الموت، ولكن الله عظمت رحمته أرسل المرسلين بالهدى ودين الحق لتنتظم مسالك الحياة وتتضح معالم الدار

الآخرة. فما الانسان فى جيل الا ذرة فى فضاء. وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء. وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء. وهل الدنيا إلا ألم يخفيه .أمل . وأمل يحققه عمل..

وعمل يليه أجل. وبعد ذلك يجزى كل امرىء بما فعل .

---

(٩٨) الحديد: ٢٥.

وهل يستطيع العقل أن يدرك ما جاء به الوحى .؟!. لقد مدح الله تعالى المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة. وهل الإيمان إلا يقين جازم مطابق للحق ناشيء عن يقين ؟ .

إن من الخطأ أن يقول الانسان مالا يعلم.. وأن يعلم قبل أن يتعلم.. ولا يخاف أن يأثم.. وإذا أثم لا يندم..

إن الله تبارك وتعالى أرسل الرسل إلى الناس بعقيدة واحدة، فكلهم عملوا فى معسكر واحد هو معسكر الإيمان بالله واليوم الآخرة.. وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله .

لذلك قد يأتي التعبير عن العدد الكثير منهم بالواحد نظرا إلى وحدة العقيدة قال تعالى : (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية)[99] . فهنا ترى أن الله أرسل إلى فرعون رسولين موسى وهارون.. وأرسل إلى من قبله رسلا كثيرين وأرسل إلى المؤتفكات لوطا عليه السلام. ومع ذلك جاء التعبير عن هذا العدد الغفير من الرسل بلفظ رسول فى قوله جل شأنه (فعصوا رسول ربهم)، فهم وإن كانوا كثيرا فهم متحدون فى العقيدة يمهد سابقهم للاحقهم ويكمل لاحقهم سابقهم.

---

(99) - الحاقة: ٩، ١٠.

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)(100)
قال صلى الله عليه وسلم «مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويقولون هلا وضعت تلك اللبنة.. فأنا تلكم اللبنة وخاتم النبيين». ولقد جمعهم الله تعالى لحبيبه ومصطفاه فى المسجد الأقصى ليلة الإسراء وقال له :
(واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)(101)
ولكن الحياء كان شيمته، فاستحى أن يسأل هذا السؤال، فالعلم بوحدانية الله مركوز فى طبائع الأشياء من يوم أخذ الله الميثاق على البشرية فى عالم الذر ، وقطع الله المعاذير على الذين تنكبوا الجادة وحادوا عن الصراط السوى. قال جل شأنه : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين - أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون. وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) (102).
فكل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه . ولو سألت العالم من عرشه إلى فرشه، ومن سمائه إلى أرضه وقلت له: من خالقك؟ لأجابك بلسان الحال والمقال «أنا مخلوق للواحد الديان» .

الأرض حولك والسماء اهتزتا   لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه   تمحو أثم الشك والانكار

---

(100) الأنبياء: 25   (١٠١) الزخرف : 45   (١٠٢) الأعراف: ١٧٢ ١٧٤.

لقد قامت دعوات الأنبياء على أصول العقائد وشعائر العبادات، ومناهج السلوك وقواعد النظام، ومبادىء الأحكام. فحملوا مشاعل الهدى، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، فمن كذب واحدا منهم فقد كذبهم جميعا وكفر وارتد. قال سبحانه وتعالى: (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما)(103) .
فأنت ترى هنا أن قوم نوح أرسل إليهم نبى واحد، هو شيخ الأنبياء نوح ، ولكنهم لما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل، لذا جاء لفظ الرسول مجموعا هنا.
قال تعالى: «لما كذبوا الرسل» ومن ثم فإن عقيدة الإسلام صححت كل انحراف وبينت الهدى من الضلال والرشد من الغى . أمرت بالإيمان .. بجميع الرسل فمن كفر بواحد منهم فقد كفر .
قال تعالى: (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض

ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين امنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما)[104]

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخي موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي) وفى حجة الوداع نزل قرآن على الصادق المعصوم اشتمل على أربع بشريات : (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون)

---

(103) الفرقان: ٣٧ (١٠٤) النساء: ١٥٠ - 152

وثانيتها: (اليوم أكملت لكم دينكم). وثالثتها: (وأتممت عليكم نعمتى) . ورابعتها: (ورضيت لكم الإسلام دينا)[١٠٥].

فإذا كان الله تعالى أكمل دينه ، فعلينا أن نلتزم بما جاء فى هذا الدين، فليس دين الله فى حاجة إلى زيادة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

---

(105) المائدة: ٣.

القرآن فيه نور وهدى

إذا كان القرآن كونا ناطقا فإن الكون قرآن صامت، وعل كل مسلم أن يكون قرآنا يمشى بين الناس، لا يزيغ عنه ولا يحيد عن تعاليمه . فإن القرآن هو الكتاب الذى لا تلبس به الألسنة، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تتشعب معه الآراء، ولا تمله الأتقياء، ولا يرغب عنه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تبلى جدته.

ولقد مر على نزول القرآن أربعة عشر قرنا من الزمان، وكان ومازال وسيظل غضا نديا يتقاطر نورا ورحمة، ولن يستطيع الزمان على مر الأعوام وكر الدهور أن يصيب أسلوبه بالجفاف . (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)[106]

(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)[107] من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم، ومن زاغ عنه هلك، ومن تركه من جبار قصمه الله .

قال صلى الله عليه وسلم : كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم، إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ثم تلى قوله تعالى :

(أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)[108]

---

(١٠٦) فصلت: ١ (١٠٧) يوسف ٢ (١٠٨) العنكبوت، ٥١.

قال العلماء: إن حفظ القرآن الكريم فرض كفاية على الأمة، وكذلك تعليمه، صرح به أبو العباس الجرجانى فى كتابه (الشافى) فى فروع الشافعية، وكذا العبادى وغيرهما.

قال الجوينى : والمعنى فيه ألا ينقطع عدد التواتر فيه، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف، فإن قام بذلك قوم سقط الإثم عن الباقين ، فإن لم يكن فى البلد والقرية من يتلو القرآن أثموا بأسرهم، ولو كان هناك جماعة يصلحون لتعليمه وطلب من بعضهم وامتنع لم يأثم فى الأصح.

وهو أشرف العلوم، وحملته أشرف الناس، حث الله على تعليمه وترتيله، ووعد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم أجرا عظيما. فمن القرآن .

(ورتل القرآن ترتيلا)[109]. (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)[110]. (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن)[111] (اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة)[112] (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من

يشاء)[113].
وفى الوعيد: (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم) [114].

---

(١٠٩) المزمل: ٤ (١١٠) ص: ٢٩ (١١١) النمل: ٩١، ٩٢.
(112) العنكبوت: ٤٥ (١١٣) الزمر: ٢٣ (١١٤) لقمان: ٧

وروى البخارى عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) .
وفى الصحيحين عن عائشة قالت: قال صلى الله عليه وسلم: (الذي يقرا القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن وهو يتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) . وروى الترمذى وقال عنه حسن صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الذى ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب) .
وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى يرفع بهذا الكلام أقواما ويضع به اخرين).
وروى عن أبى أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه».
وروى البخارى عن جابر بن عبد الله «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد، ثم يقول : أيهما أكثر أخذا للقرآن؟ .. فإن أشير إلى أحدها قدمه فى اللحد».
وأخرج أبو داود وأحمد والحاكم عن معاذ بن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ومن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس الله والديه تاجا يوم القيامة ضوؤه احسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا فما ظنكم بالذى عمل بهذا»؟.
وروى أحمد والدارمى وابن ماجة وغيرهم من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله أهلين من الناس، قيل: من هم يارسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » . وعن شقيق أبى وائل قال : «قيل لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه إنك تقل الصوم؟ قال: إني إذا صمت ضعفت عن القرآن وتلاوة القرآن أحب إلى».
وروى الحاكم عن عبد الله بن عمرو، مرفوعا: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه».
وكان الامام أبو عبد الرحمن السلمى التابعى الجليل يقول لما يروى حديث عثمان المرفوع. « خيركم من تعلم القرآن وعلمه» : «هذا الذى أقعدنى مقعدى هذا».. يشير إلى كونه جالسا فى المسجد الجامع

بالكوفة يعلم القرآن ويقرئه مع جلالة قدره وكثرة علمه ، وحاجة الناس إلى علمه، وبقى يقرىء الناس بجامع الكوفة أكثر من أربعين سنة، وعليه قرأ

الحسن والحسين رضى الله عنهما.

ومر أعرابى على عبد الله بن مسعود وعنده قوم يقرأون القرآن .. فقال : ما يصنع هؤلاء؟ فقال له ابن مسعود: يقتسمون ميراث محمد صلى الله عليه وسلم .

وعلى من حفظه أن يداوم عليه، ويتعاهده بالذكر وألا يعرضه للنسيان. قال تعالى : (الله نزل أحسن لحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) (115) فسماه ذكرا.

وأثنى تعالى على من كان دأبه تلاوة ايات الله : (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل) (116)

وعن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . بئسما لأحدهم يقول نسيت. اية كيت وكيت بل هو نُسِّى. استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتا من صدور الرجال من النعم بعقلها».

ومن طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل الابل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت، وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإذا لم يقم نسيه» .

وعن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (تعاهدوا هذا القرآن فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها)

---

(١١٥) الزمر: ٢٣ (١١٦) آل عمران: ١١٣.

الأنبياء والأمم

بين الله تعالى القواعد التى ترتكز عليها الجاهلية الجهلاء، ذات الضلالة العمياء، فقال سبحانه : (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا
آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ الميين)[117]
فهنا ترتكز الجاهلية على الشرك فى العبادة والشرك فى الأحكام، حلا وحرمة وتقليد الاباء.
أما الشرك فى العبادة فذلك لأنهم عبدوا من دون الله أشياء لا تضر ولا تنفع، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا.
وأما الشرك فى الأحكام، فقد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله فأحلوا لهم وحرموا فكانوا كما قال تعالى : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة)[١١٨] .
وقال تعالى: (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله)[119] .
أما الركن الثالث من أركان الجاهلية فهو التقليد الأعمى لضلال الاباء.

---

(١٠٧) النحل: ٣٥ (١١٨) يونس: ٥٩، ٦٠ (١١٩) الشورى: ٢١.

(وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون)[120] .
هكذا كان منطق الجاهلية، فجاء التعقيب من رب البرية، (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين)[121] .
(فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)[122] .
وقد بين الله تعالى رسالة الأنبياء، ووضح المنهج الإلاهى الذى دعوا إليه العباد، فصححوا المفاهيم، ووضحوا المعالم، وبينوا مسالك الطريق ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حى عن بينة. قال سبحانه وتعالى : (ولقد بعثنا في كل أمه رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[123]
فالأمر هنا بعبادة الله ينتظم توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فالمعبود بحق هو الله وحده، لذا وجب افراده بالعبادة، واعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، وكل الكائنات طوع إرادته . (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا)[124] .

(١٢٠) الزخرف: ٢٣، 24   (١٢١) النحل: 35 (١٢٢) البقرة: ٢١٣.
(١٢٣) النحل: ٣٦   (١٢٤) الاسراء: ٤٤٠٤٢.

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه
الوحش مجده والطير تسبحه   والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه   والنحل يهتف حمدا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرا فيسترهم   والعبد ينسى وربى ليس ينساه

لقد جاء الأمر بعبادة الله وحده على لسان الانبياء، للأمم ردا وتصحيحا للركيزة الأولى من ركائز الجاهلية التى اتخذت من دون الله الهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا وجاء أيضا توحيد الربوبية.

فصاحب الإنعام هو الله ، فهو الرازق المحيى المميت، مدبر الأمر ومما يدعو إلى العجب العجيب أن أهل الجاهلية آمنوا بالله ربا وأشركوا به معبودا.

قال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[125] . امنوا به ربا كما جاء فى آيات كثيرة من الكتاب العزيز : (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)[126]
(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)[127] (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)[128] .

(قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون)[129] .

(125) يوسف: ١٠٦   (١٢٦) العنكبوت: ٦١ (١٢٧) الزخرف: ٩.
(128) الزخرف : 87 (١٢٩) يونس: ٣١ - ٣٣.

فلما دعوا على ألسنة الانبياء، ثارت ثورتهم عندما أمروهم بعبادة الله وحده، وجن جنونهم وتحركت ثعابين الحقد فى قلوبهم، وهاجت عقارب البغضاء فى صدورهم، وانتشرت جراثيم الشرك فى دمائهم .

قال تعالى: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق)[130]

فانظر كيف أحدثوا انفصاما عنيفا بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فالله عندهم هو.الخالق الرازق،

المحيى المميت، مدبر الأمر، العزيز العليم، ولكنهم أبوا أن يعبدوه وحده، بل إنك لتأخذك الدهشة، ويستولى عليك العجب وأنت تقرأ هذه الأسئلة الموجهة إليهم، وكيف أجابوا عنها.

(قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون)[١٣١]

ثم يوجه القرآن الكريم قذائف الحق ثقيلة بعيدة المدى إلى تلك البيوت التى نسجتها العناكب، وهى أوهن من الوهن نفسه، فيقول سبحانه مبينا توحيد الألوهية:

(ما اتخذ الله من ولي وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون)[132] .

---

(١٣٠) ص: ٤-٧ (١٣١) المؤمنون: ٨٤ - ٩٠ (١٣٢) المؤمنون: ٩١-٩٢.

ويختم الله تعالى هذه السورة الكريمة بقوله: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون)[133].

فاللهم "ارزقنا قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ورضوانا.

---

(١٣٣) المومنون: 115- 117

وشائج الايمان أقوى وأبقى

يخاطب الله تبارك وتعالى حبيبه ومصطفاه فيقول:
(وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)[134] .
إن الإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا، والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، ومن هنا فإن الآصرة الحقيقية، والوشيجة الأصلية، والرابطة الراسخة ترجع إلى الإيمان .
وهل الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله فمن أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان.
وهل المؤمنون الصادقون إلا هؤلاء الذين تجردوا لله، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله . لقد طهرت أيديهم من الرشوة، طهرت ثيابهم من الدنس، كا استنارت جوارحهم بضياء السماء، فاشتغلت كل جارحة بنور الذكر، والصفاء، والنقاء فذكر العينين البكاء. وذكر الأذنين الاصغاء. وذكر اللسان الثناء. وذكر اليدين العطاء. وذكر البدن الوفاء.

---

(١٣٤) الأنفال: -62- 63

وذكر الروح الخوف والرجاء. وذكر القلب التسليم والرضاء. فنالوا أعظم الأوسمة، ولبسوا أرفع التيجان، إنهم الذين عناهم الله تعالى بقوله : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا[135]
إنهم الذين عناهم رب العزة بقوله: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[136]
لقد تحلوا بالإيثار ونبذوا الأثرة.
قال هشام العدوى: التمست أخى فى القتلى يوم اليرموك فوجدته جريحا وحوله تسعة من المسلمين جرحى . قلت له: ألا تريد شيئا؟. قال : أريد ماء لأشرب.
فأتيته بالماء.. فقال لى : إذهب به إلى من بجوارى فقد يكون أشد منى ظمأ. فلما ذهبت به إلى غيره قال لى : اذهب به إلى من جوارى... وهكذا مررت بالماء عليهم جميعا وكل منهم يوثر أخاه على نفسه، حتى إذا ما انتهيت إلى آخرهم، ورجعت إلى أخى وجدته قد أسلم الروح إلى الله . وهكذا إخوانه التسعة أفضوا

بأرواحهم إلى بارىء الأكوان ، وبقى الماء كما هو . فى أى المدارس تخرج هؤلاء؟. وعل أيدى من تعلموا؟ .

---

(١٣٥) الكهف : ٢٨ (١٣٦) الحشر: 9 .

أكانوا بشرا أم ملائكة؟ . لقد كانوا بشرا ولكنهم ملائكة البشر.. ما منهم من أحد إلا ويتمنى أن يموت قبل أخيه . إنهم خريجو مدرسة عميدها المصطفى صلوات ربى وسلامه عليه. إنهم الذين إذا جن عليهم الليل نظر الله إليهم فى جوف الليل، وأصلابهم محنية على أجزاء القرآن، إذا مر باية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها، فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه.

إنهم الذين كان هواهم تبعا لما جاء به نبى الرحمة الذى قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». إنهم الذين رددوا هذا النشيد الاخلاقي الرفيع.

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك إنهم الذين إذا وقفوا بين يدى الله فى الصلاة وسألت أحدهم: كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ .

قال لك . إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى ، والموت ورائى، والجنة عن يمينى والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، وكلي يقين بأن الله مطلع على ، ثم أتم ركوعها وسجودها، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردها علي. إن الكثير من المسلمين قد يعلمون شروط وجوب الصلاة، كالإسلام والبلوغ والعقل، وقد يعلمون شروط صحتها من الطهارة ودخول الوقت، وستر العورة واستقبال القبلة . ولكنهم قد لا يعلمون شروط قبولها، مع أن شروط القبول هى روح الصلاة، وماء الحياة وضوء الشمس، ونور القمر، ومحور الارتكاز وحجر الزاوية، ودائرة الضوء ومن هنا قد يقع الانفصام بين الصلاة والسلوك، فلا تؤتى الصلاة ثمرتها المرجوة منها والتى قال الله فيها: (أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[137]

وقد جاءت شروط القبول فى حديث قدسى جامع قال فيه رب العزة: (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى، ولم يبت مصرا على معصيتى، وقطع نهاره فى ذكرى، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتى ، وأستحفظه ملائكتى ، أجعل له فى الظلمة نورا، وفى الجهالة حلما، ومثله فى خلقى كمثل الفردوس في الجنة) .

أرأيت إلى تلك الشروط ثم أعلمت الثمرات الطيبة المترتبة عليها. إن الشروط ما هى إلا أخلاق ، ومثل عليا، وقيم رفيعة، لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات.

رياضة أبدان، وطهارة أردان، وتهذيب وجدان، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان .

أصحابها هم الصابرون والمثابرون، وعل الواجب هم القادرون، عروتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق

، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يرود به المخلوق التوجه إلى الخالق . انظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع، كيف ساوت العلية بالزمع مست الأرض الجباه، فالناس أكفاء، وأشباه الرعية والولاة سواء فى عتبة الله . خرالجمع للمناخر فالصف الأول كالآخر.. لا ألقاب ولا مناصب ولا كراسي، الأمير كالخفير والغنى كالفقير .

فاللهم ألف بين قلوب المسلمين

---

(١٣٧) العنكبوت: ٤٥ .

جلساء الملائكة

قال تعالى : (فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)[138] قال كليم الله موسى: يارب.. كيف اشكرك. قال: يا موسى.. تذكرني ولا تنسانى، إنك إن ذكرتنى شكرتنى ، وإن
نسيتنى كفرتنى .
وفى كلمة موجزة المبنى غزيرة المعنى يقول الصادق المعصوم: (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم. قلنا: بلى . قال : ذكر الله) .
إن فى الذكر تطهيرا للنفس، وتنويرا للقلب وتزكية للفؤاد. ومن عاش فى هذا الجو العبق بعطر الإيمان، الفواح بشذى التوحيد يلمح كل خير ويسمو إلى مدارج الأنوار ، ليقف على حقائق الاسرار ، ويعيش فى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر . فتعالى يا أخا الإسلام لنسمو بالنفس إلى آفاق الطهر، فنتفيأ ظلال الروح الوارف الظليل، ونتربع فوق قبة الفلك، ونتبوأ مناط الثريا فى تلك الكوكبة الربانية من الأحاديث الجليلة القدر العظيمة المنزلة.

---

(١٣٨) البقرة ١٥٢ .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم.. قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال : فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم: ما يقول عبادى؟ . قال يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك.
فيقول: هل رأوني؟. قال فيقولون: لا.. والله ما رأوك . قال فيقول: وكيف لو رأونى؟. قال يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا وتحميدا، وأكثر تسبيحا.
قال فيقول: فما يسألوننى ؟ . قال يقولون: يسألونك الجنة. قال يقول: وهل رأوها؟. قال يقولون: لا.. والله يارب ما رأوها. قال: فكيف لو أنهم رأوها؟. قال يقولون: لو انهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ . قال يقولون: من النار . قال يقول: وهل رأوها؟. قال يقولون: لا.. والله يارب ما رأوها. قال يقول: فكيف لو رأوها؟. قال يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة . قال فيقول: أشهدكم أنى قد غفرت لهم. قال : يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم) .

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم. «أن عبدا من عباد الله قال : يارب.. لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها.. فصعدا إلى السماء وقالا: يا ربنا إن عبدك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها. قال الله عز وجل - وهو أعلم بما قال عبده - ماذا قال عبدى؟.

قالا : يارب.. إنه قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك . فقال الله عز وجل لهما: اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه به».

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول سبحان الله ويحمده أستغفر الله وأتوب إليه . فقلت : يارسول الله .. أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه . فقال : خبرنى - عز وجل - أنى سأرى علامة فى أمتى فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله ويحمده أستغفر الله وأتوب إليه .. فقد رأيتها. (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)[139].

---

(١٣٩) سورة النصر: ١ - ٣.

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله : (أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أو خافنى فى مقام).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :إن الله سيخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد البصر . ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ . فيقول: لا يارب. فيقول : أفلك عذر؟. فيقول: لا يارب.

فيقول: بل إن لك حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . فيقول: احضر وزنك. فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات . فقال : إنك لا تظلم. قال : فتوضع السجلات فى كفة، والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله أحد».

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما من حافظين رفعا إلى الله ما حفظا من ليل أو نهار فيجد الله فى أول الصحيفة وفى اخر الصحيفة خيرا إلا قال الله تعالى : أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن الله تعالى يقول : ياابن ادم تفرغ لعبادي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا، ولم أسد فقرك» .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله . يقول : «يعجب ربك من راعى غنم فى

رأس شظية الجبل يؤذن بالصلاة ويصل فيقول الله عز وجل: - انظروا إلى عبدى هذا يؤذن ويقيم الصلاة خاف منى قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة . فاللهم إنا نسألك حبك.. وحب من يحبك وحب عمل يقربنا إلى حبك

الدواء الشافي

لقد استطاع الإسلام بمنهجه أن يرقى بالانسان عن مراتب الحيوانية، أو الانسانية المجردة إلى مراتب الملائكة، التى يصفو عندها قلب المسلم فلا يقع فى الموبقات، فربط الإسلام المسلم برباط وثيق، يدفعه من حين لآخر، جعل له من حياته من يعظه ويزجره، دائما كلما اقترب من فاحشة أو أقبل على معصية ولقد عالج الإسلام دوافع الشر معالجة موضوعية، فبين مكانة المال عند الانسان، وأنه متاع زائل، والآخرة خير وأبقى . وجعل الأفضلية بالتقوى والعمل الصالح، وليست بالمظاهر أو المناصب، أو لأصحاب الجاه والسلطان، ورغب فى زينة الآخرة وحلاوتها، ورهب فى زينة الدنيا جملة.. ثم ذم إتيان العرافين والكهان، وذم السحر والساحر وعده من أكبرالكبائر .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات (أى المهلكات). قالوا: يارسول الله وما هن؟. قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

وقوله: «وثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر ...) .

هذا وقد وضع الإسلام علاجا للمسحور، فمثلا فى علاج رسول الله صلى الله عليه وسلم للسحر الذى سحرته به اليهودية ... وأنزل الايات الشافيات بإذنه تعالى . وكون العقيدة عند المسلم الذى لا يذل أمام الهوى ولا يخضع لبريق الحياة . وضع علاجا للصرع، وبينه من خلال علاج رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى العاص. وفيما يلي بيان ذلك:

اليهودية التى سحرت الرسول صلى الله عليه وسلم

قال ابن القيم فى الطب النبوى : «قد أنكر هذا طائفة من الناس، وقالوا: لا يجوز هذا عليه، وظنوه نقصا ما كان يعتريه صلى الله عليه وسلم وعيبا، وليس الأمركما زعموا، بل هو من جنس من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما . وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه كان ليخيل إليه أنه يأتى نساءه ولم يأتهن وذلك أشد ما يكون من السحر.

قال القاضى عياض: «والسحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه صلى الله عليه وسلم كأنواع الأمراض مما لا ينكر، ولا يقدح فى نبوته».

وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله ، فليس فى هذا ما يدخل عليه داخلة فى شيء من صدقه، لقيام الدليل والاجماع على عصمته من هذا وإنما هذا فيما يجوز طرده عليه فى أمر دنياه، التى لم يبعث لسببها ولا فضل من أجلها وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر. فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها مالا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان .

وكان غاية هذا السحر فيه أنما هو فى جسده، وظاهر جوارحه لا على عقله وقلبه، ولذلك لم يكن يعتقد صحة ما يخيل إليه، بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له، ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض. ومع أنفع علاجات السحر الأدوية الإلاهية، بل هو أدويته النافعة بالذات ، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار والايات والدعوات التى تبطل فعلها وتأثيرها، وكلما كانت أقوى كانت أبلغ فى الشفاء. وذلك بمنزلة التقاء جيشين، مع كل واحد منهما عدته وسلاحه، فأيهما غلب الآخر قهره وكان الحكم له، فالقلب إذا كان ممتلكا بحب الله مغمورا بذكره - وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات ورد لا يخل به يطابق فيه قلبه لسانه .

كان هذا من أعظم الأسباب التى تمنع إصابة الشر له ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه .

وعليك ياأخى إذا أردت اتقاء السحر أن تجلس بعد صلاة العشاء يوما، تكون قد صليتها فى جماعة، ثم تصل السنة والوتر، وتقرأ شيئا من القرآن، ثم تجلس للذكر والدعاء وتقرأ «قل هو الله أحد والمعوذتين وآية الكرسى، وتكثر من الدعاء والاستغاثة يكشف الله ما بك ويبطل السحر إن شاء الله . وقد وضع بعض العلماء طرقا لإبطال السحر منهم الصبيرى المقرى في كتابه «الرحمة فى الطب والحكمة»، كما ذكر ابن القيم فى الطب النبوى ومن هذه الاذكار التى تبطل السحر قراءة قوله تعالى : (قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كرة المجرمون)(140) .

---

(140) يونس: ٨١، ٨٢.

وقوله تعالى: (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين)(141) وقوله جل شأنه : (وقدمنا إلى ما عملوا فجعلناه هباء منثور)(142) وقوله تبارك اسمه: (وخسر هنالك المبطلون)(143)

وقوله عظمت حكمته : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا)(144) . وقوله تبارك وتعالى: (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) (145) والاكثار من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فانها كنز من كنوز الجنة.

أما عن الصرع فقد أدرك علماء الإسلام إدراكا وافيا معرفة الصرع وعلاجه، ويوضح ذلك ما جاء فى السنة من علاج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحالات الصرع.

وفى الحديث ما أخرجاه فى الصحيحين من حديث عطاء بن أبي رباح قال قال ابن عباس: «ألا أريك

امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى . قال: هذه المرأة السوداء.. أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت: إنى أصرع وإني أتكشف فادع الله لى.

---

(141) الأنبياء: 70   (١٤٢) الفرقان: ٢٣.
(١٤٣) غافر، ٧٨   (١٤٤) النور: ٣٩.
(١٤٥) الأعراف، ١١٩٠١١٨ .

فقال : إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئتت دعوت الله لك أن يعافيك . فقالت: أصبر. قالت: فإنى أتكشف فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها».
وعلاج هذا يكون بأمرين.. أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج، فالذى من جهة المصروع يكون بقوة نفسه، وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ الصحيح الذى قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع من المحاربة. والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدو بالسلاح إلا بأمرين؛ أن يكون السلاح صحيحا فى نفسه، وأن يكون الساعد قويا.
فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح عن صاحبه شيئا، فكيف إذا عدم الأمران جميعا بأن يكون القلب خربا من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه، ولا سلاح له.
والثانى: من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضا ومن المعالجين من يكتفى فى علاج المصروع بقوله: بسم الله أو لا حول ولا قوة إلا بالله ، أو تقرأ له فى أذنه قوله تعالى: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم)[146] .
فاللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء. وللحديث بمشيئة الله تعالى بقية

---

(١٤٦) المومنون: ١١٥، ١١٦.

لكل داء دواء يستطب به

القرآن الكريم فيه شفاء لما فى الصدور. قال تعالى: (ويشف صدور قوم مؤمنين)[147]
وقال تبارك اسمه: (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)[148] وقال جلت حكمته : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانة فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)[149]. وقال جل جلاله : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)[150]
قال صلى الله عليه وسلم : «عليكم بالشفاءين القرآن والعسل». وللمفسرين لمحة لطيفة عندما يقولون لقد جاءت سورة الاسراء بعد النحل لما فى النحل من شفاء الأبدان ولما فى سورة الاسراء من شفاء النفوس .
وقال عظمت رأفته: (وإذا مرضت فهو يشفين)[151] حكاية عن قول إبراهيم الخليل.

---

(١٤٧) التوبة: ١٤ (١٤٨) يونس: ٥٧ (١٤٩) النحل: ٦٨، ٦٩.
(١٥٠) الإسراء: ٨٢ (١٥١) الشعراء: ٨٠.

وقال عمت رحمته : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء)[152] وكان الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه يقول : عجبت لمن ابتلي بأربع كيف ينسى أربعا.. عجبت لمن ابتلي بالخوف، كيف ينسى أن يقول حسبنا الله ونعم الوكيل وقد قال تعالى: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فرادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة
من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)[153] وعجبت لمن ابتلي بالمرض كيف ينسى أن يقول «مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين» ، وقد قال تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر)[154] وعجبت لمن ابتلي بالغم كيف ينسى أن يقول: «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين»، وقد قال تعالى : (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين)[155] وعجبت لمن ابتلي بمكر الناس، كيف ينسى أن يقول: وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباده، وقد قال تعالى: (فستذكرون ما أقول لكم

وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا)[156] وقد كان صلى الله عليه وسلم يداوي جراح النفس الدامية بتنسم الروحانيات الصافية ، كان يخاطب المصروع ويقول للروح الخبيثة للشيطان: (اخرج عدو الله وأنا رسول الله)

---

(١٥٢) فصلت: 44 (١٥٣) إلى عمران: ١٧٣، ١٧٤.
(١٥٤) الأنبياء: ٨٣، ٨٤ (155) الأنبياء: ٨٧، ٨٨
(١٥٦) غافر: ٤٥ ـ٤٤.

وذلك لأن قوة الايمان إذا باشرت شغاف القلوب، وتمكنت ووقرت في القلب، تكاد تجعل المستحيل ممكنا، وتوشك أن تسير العوالم، وتحرك الجبال ، وتجعل من الملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا. فالشياطين كالذباب لا تحوم إلا حول القلوب التى خلت من ذكر الله فأصبحت كالبيت الخرب.
وكان بعض الصالحين يعالج الأمراض النفسية بقراءة قوله تعالي : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون)[157].. تقرأ في أذن المصروع. وكان يعالج باية الكرسى، وكان يأمره بقراءة المصروع ومن يعالجه بها، وبقراءة المعوذتين .
وكان العلامة ابن القيم قد قسم الصرع إلى نوعين : النوع الأول: صرع الأرواح الخبيثة وهو موضوعنا. أما النوع الثانى : فهو صرع من الأخلاط الرديئة... وهو الذى يتكلم فيه الاطباء في سببه وعلاجه .. وقد يكون لأسباب منها: ريح غليظ يحتبس فى منافذ الروح، أو بخار ردىء يرتفع إليه عن بعض الأعضاء أو كيفية لاذعة. وبالجملة... فهو اضطراب في الوظائف المخية، وعادة يصاحب باضطراب الإحساس، وينتج عن ذلك كله أن ينقبض الدماغ لدفع المؤذى، فيتبعه تشنج في جميع الأعضاء، ولا يمكن أن يبقى الانسان معه منتصبا، بل يسقط ويظهر فى فيه الزبد غالبا والله أعلم.
وهذه أدوية إلاهية لتحصين الانسان من الشر، لترقى سريرته، ويعتلي قدره، وتصفو روحه، وتشع نورا وبهاء وضياء وإشراقا وجلالا وجمالا وكمالا ، فلا يستطيع الشيطان التأثير عليه ، إذ التأثير يتفاوت من انسان لاخر، حسب قوة إيمانه ودرجته عند مولاه.

---

(١٥٧) المؤمنون: ١١٥.

قال تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)[158] وإذا أكثر الإنسان من ذكر الله ، وإذا اتبع منهجا فى حياته ارتقى بنفسه ، ونأى بها عن الشيطان وأهله ومنها: في صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : (من قال حين يصبح وحين يمسى: سبحان الله

ويحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه).

وفى صحيحه أيضا عن ابن مسعود قال : «كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال أمسينا وأمسى الملك لله، وله الحمد، وهو عل كل شيء قدير ، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب فى النار، وعذاب فى القبر) وإذا أصبح قال أيضا: (أصبحنا وأصبح الملك لله .)

وفى السنن عن عبد الله بن حبيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قل). قلت: يا رسول الله ما أقول ؟ . قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ، ثلاث مرات تكفك من كل شىء.

---

(١٥٨) النحل: ٩٨ - ١٠٠

وفى الترمذى أيضا عن أبى هريرة: أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه يقول : «إذا أصبح أحدكم فليقل: اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا، وبك نحيا وبك نموت، وإليك النشور.. وإذا أمسى فليقل: اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا، وبك نحيا وبك نموت، وإليك المصير» . وفى صحيح البخارى عن شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت .. خلقتنى وأنا عبدك، وأنا عل عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». من قالها حين يمسى فمات من ليلته دخل الجنة، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة.

أدوية إلاهية مباركة

عجبت لأمة فيها كتاب الله ينطق بالهدى، وفيه الشفاء لكل داء، ومع كتاب الله سنة رسول الله تنطق بالحكمة، وتداوى أمراض النفوس.

عجبت لهذه الأمة كيف تشكو مما يسمى بالعقد النفسية، وقد قال تعالى فى الشفاء لكل داء: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[159]

وقد أخبر الصادق المعصوم أمته بتلك الحقيقة فقال : «تداووا عباد الله، إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء، ولا تداووا بما حرم الله » .

فهذه أدوية إلاهية فيها الشفاء والدواء والغذاء.

وفى الترمذى عن أبى هريرة أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «مرنى بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال : قل اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، رب كل شيئ ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه.. وأن نقترف سوءا على أنفسنا».

وفى الترمذى أيضا عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم - ثلاث مرات فلا يضرها شيء».

---

(١٥٩) الرعد: ٢٨.

وفى الترمذى أيضا عن ثوبان وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قال حين يمسى وإذا أصبح: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا كان حقا على الله أن يرضيه) .

وفى الصحيحين عن حذيفة قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينام قال : باسمك اللهم أموت وأحيا وإذا استيقظ من منامه قال: الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

وفى الصحيحين أيضا عن عائشة: ان النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما يقرأ فيهما (قل هو الله أحد.. وقل أعوذ برب الفلق.. وقل أعوذ برب الناس».. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات) .

وفى الترمذى عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم من الفزع كلمات : «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وشر عباده ومن همزات الشياطين
وأن يحضرون».
وفى صحيح مسلم عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه» .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال - يعنى إذا خرج من بيته - بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : كفيت ووقيت، وهديت، وتنحى عنه الشيطان فيقول الشيطان للآخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقي ؟».
وفى صحيح مسلم عن جابر قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء.. وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت فإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء) .
وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى حميد أو أى أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا دخل أحدكم إلى المسجد فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وليقل: اللهم افتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل اللهم إلى أسألك من فضلك».
وفى صحيح البخارى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة » .
وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق ، ومحمد حق، والساعة حق .
اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهى لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك) .